تبيين وجوب ومشروعيّة التوسّل في ضوء الخلافة الإلهيّة وشفاعة النبيّ والأئمّة

مرتضى مولوي وردنجاني (الكاتب المسؤول)
استاذ مساعد، قسم المعارف الإسلامية في جامعة العلوم الزراعية والمصادر الطبيعية خوزستان، إيران
morteza.molavi12@asnrukh.ac.ir
محمّد أمينيان
أستاذ مساعد، قسم الكلام الشيعي، جامعة أميرالمؤمنين، الأهواز، إيران
M.09169015120@yahoo.com
سيد حسن إسلامي نجاد
طالب دكتوراه، علم الكلام الشيعي، جامعة أمير المؤمنين، الأهواز، إيران
hasaneslami26@gmail.com

Explaining the necessity and legitimacy of Tawasul in light of the divine caliphate and the intercession of the Prophet and Imams

Dr. Morteza Molavi Vardanjani (Responsible writer)
Assistant Professor , Department of Islamic Knowledge , agricultural sciences and natural resources university of Khuzestan , Iran
Dr. Mohammad Aminian
Assistant Professor , Department of Shi'a Theology , Amir al-Mu'minin University , Ahvaz , Iran
Seyyed Hassan Eslaminejad
PhD student , Department of Shi'a Theology , Amir al-Mu'minin University , Ahvaz , Iran

الملخّص:-

يُعدّ التوسّل بأولياء الله والأئمّة المعصومين عليهم السلام من الموضوعات المهمّة والمثيرة للجدل في علم الكلام الإسلامي. والسؤال الجوهري هو: هل يقتصر التوسّل على حدود المشروعيّة والجواز، أم أنّه في بعض الحالات يُعدّ واجباً شرعياً وعقلياً؟ يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي ـ التحليلي، مع الارتكاز إلى المصادر القرآنية والروائية والكلامية والعقلية، بغية بيان هذا المسار التدريجي: أولاً إثبات مشروعيّة التوسّل بالاستناد إلى آيات القرآن وروايات الفريقين، ثم تحليل أسس وجوب التوسّل في الفكر الشيعي. وتُظهر النتائج أنّ آياتٍ مثل قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) وقوله: ﴿جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ (النساء: ٦٤) تدلّ على مشروعيّة واستحباب التوسّل، بينما آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٠٨) مصحوبةً بالروايات المقرّرة لشروط قبول الأعمال، تمثّل أساساً لنظريّة الإلزام والوجوب. وفي المجال الكلامي والعقلي، يُظهر أصل اللطف وضرورة وسائط الفيض الإلهي أنّ الإنسان لا غنى له عن التوسّل بأولياء الله للوصول إلى الكمال. وقد عزّز كبار العلماء، أمثال المجلسي، والصدوق، وابن طاووس، هذا المذهب بتصريحهم بوجوب التوسّل. وتخلص الدراسة إلى أنّ التوسّل ليس مشروعاً فحسب، بل هو واجب في كثير من الحالات، وتركه عن علم يُعدّ إعراضاً عن الهداية الربانية.

الكلمات المفتاحية: التوسّل، المشروعيّة، الوجوب، الولاية، الأئمّة المعصومون، الكلام الشيعي والسنّي.

Abstract:-

Tawassul to the divine saints and infallible Imams (peace be upon them) is an important and controversial topic in Islamic theology. The fundamental question is whether tawassul is merely a matter of legitimacy and permissibility or is it considered a religious and rational obligation in some cases? The present study, using a descriptive-analytical method and relying on Quranic, narrational, theological and rational sources, seeks to explain this gradual process: first, proving the legitimacy of tawassul by citing Quranic verses and the narrations of the two sects, then analyzing the foundations of the obligation of tawassul in Shiite thought. The findings show that verses such as (Al-Ma'idah:35) and (An-Nisaa:64) indicate the legitimacy and desirability of tawassul, while other verses such as verse 108 of Surah Shu'ara: along with the narrations, provide the basis for the theory of obligation and obligation. In the theological and intellectual realms, the principle of grace and the necessity of the means of divine grace also show that man is bound to resort to divine saints in order to attain perfection. Prominent scholars such as Majlisi, Saduq, and Ibn Tawus have reinforced this theory by emphasizing the necessity of resorting to God. The result is that resorting to God is not only legitimate but also obligatory in many cases, and consciously abandoning it means disregarding divine guidance.

Key words: Tawasul, legitimacy, obligation, wilayah , infallible Imams, Shia and Sunni theology.

المقدمة:ـ

تُعدّ مسألة التوسّل بأولياء الله والأئمّة المعصومين عليهم السلام من الموضوعات الأساسية والراسخة في الفكر الإسلامي، والتي كانت منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا موضع بحث وتساؤل، وأحياناً جدل علمي وعقائدي بين المذاهب المختلفة. وتتجلّى أهميّة هذا الموضوع ليس فقط من الناحية التعبّدية والفردية، بل من المنظور الاجتماعي والكلامي أيضاً؛ ذلك أنّ النظرة إلى التوسّل يمكن أن تؤدّي دوراً محورياً في تشكيل الهويّة الدينية وأسلوب علاقة المؤمن بخالقه.

من منظور تاريخي، يمكن تتبّع جذور البحث في التوسّل إلى صدر الإسلام، بل وفي القرآن الكريم نفسه، حيث تناولت آيات متعدّدة مفهوم «الوسيلة» و«ابتغاء القرب». فالآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1] تؤكّد بوضوح على ضرورة إيجاد وسيلة للتقرّب إلى الله. وقد قدّم المفسّرون في تفسير «الوسيلة» آراءً متباينة؛ فمنهم من فسّرها بـ«العمل الصالح»، ومنهم من طبّقها على الأئمّة المعصومين عليهم السلام، لا سيّما في الروايات الشيعية. وقد مهّد هذا الاختلاف في التفسير لمباحث واسعة في علم الكلام الإسلامي.

ومع مرور الزمن، اكتسب موضوع التوسّل أبعاداً جديدة. ففي حين قَبِل كثير من علماء أهل السنّة أصل مشروعيّة التوسّل بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأولياء الله، فإنّ فئة من المتأخّرين ـ وبخاصة في التيار السلفي والوهابي ـ اعتبرته نوعاً من البدعة أو حتى الشرك. وفي المقابل، لم يقتصر علماء الشيعة على تأكيد المشروعيّة، بل شدّدوا على ضرورته وأحياناً على وجوبه. ويُظهر هذا التباين في وجهات النظر أنّ التوسّل ليس مجرّد مسألة تعبّدية بسيطة، بل له جذور في أسس كلامية وتفسيرية، بل وفلسفية عميقة.

والسؤال الرئيس الذي يطرحه هذا البحث هو:

هل يقتصر التوسّل على حدود المشروعيّة والجواز، أم يمكن أن يرتقي إلى مرتبة الإلزام والوجوب؟

للإجابة عن هذا السؤال، لا بدّ أولاً من توضيح الأسس التي تقوم عليها مشروعيّة التوسّل. ويمكن بيان ذلك بالرجوع إلى آيات القرآن، وروايات الفريقين، وآراء المفسّرين

والمتكلّمين. فالآية الكريمة: ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[٢] مثال بارز يبيّن كيف أنّ المسلمين في حياة النبيّ الأكرم ﷺ كانوا مأمورين بالرجوع إليه لطلب المغفرة. وهذا الأمر يثبّت أصل مشروعيّة وساطة أولياء الله في النظام التشريعي.

أما الخطوة التالية، فتتجاوز المشروعيّة لتصل إلى بحث الوجوب. فإذا كانت الآيات القرآنية قد وردت بصيغة الأمر، وإذا كانت الروايات قد نصّت صراحةً على أنّ الولاية والتوسّل شرطٌ لقبول الأعمال، فإنّ الحديث عن وجوب التوسّل يصبح أمراً لا مفرّ منه. ويؤيّد ذلك أنّ العقل أيضاً، استناداً إلى قاعدة اللطف وضرورة وسائط الفيض، يقرّ بحاجة الإنسان إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام. فكما أنّ المريض لا سبيل له إلى الشفاء من دون طبيب متخصّص، كذلك الإنسان لا يصل إلى كماله المنشود من دون الاتصال بوسائط الفيض الإلهي.

من منظور الكلام الشيعي، لا يقتصر دور الأئمّة على كونهم هداةً للأمّة، بل إنّ مكانتهم التكوينية بوصفهم «باب الله» و«وجه الله» تجعل التوسّل بهم ليس مجرّد عمل مستحبّ، بل واجباً في بعض الحالات. ويُعدّ العلّامة المجلسي، والشيخ الصدوق، والسيّد ابن طاووس من بين العلماء الذين صرّحوا في مصنّفاتهم بلزوم التوسّل وضرورته. وتُبيّن هذه الآراء أنّ المسار المنطقي في مسألة التوسّل يبدأ من «المشروعيّة» وينتهي إلى «الوجوب».

وعليه، فقد تشكّل هذا البحث من خلال الجمع بين محورين أساسيين: الأول، دراسة مشروعيّة التوسّل في القرآن والسنّة من منظوري الشيعة وأهل السنّة؛ والثاني، تحليل أسس وجوب التوسّل بالاعتماد على القرآن، والروايات، والمباحث الكلامية، والأدلّة العقلية. وبذلك، فإنّ الهدف الرئيس لهذا البحث هو إثبات أنّ التوسّل لا يمتلك مكانة مشروعة في الشريعة فحسب، بل هو في كثير من الحالات واجب لا يمكن تجاهله.

المبحث الثاني

دراسة مفهومي التوسّل والشفاعة

١- المعنى اللغوي للتوسّل

اشتُقّت كلمة «التوسّل» من جذر «وَسَلَ»، وتأتي في اللغة بمعنى « ما يتقرَّب به إلى

الغير»[٣]. وقد عرّف ابن منظور في لسان العرب «الوسيلة» بأنّها: «(وسل) الوَسِيلةُ المَنْزِلة عند المَلِك والوَسِيلة الدَّرَجة والوَسِيلة القُرْبة ووَسَّل فلانٌ إلى الله وسِيلةً إذا عَمِل عملاً تقرَّب به إليه »[٤]. وبناءً على ذلك، فإنّ التوسّل من الناحية اللغوية يعني البحث عن أيّ طريق أو أداة للتقرّب إلى الله تعالى.

٢. المعنى الاصطلاحي للتوسّل

أمّا في الاصطلاح الكلامي والتفسيري، فالتوسّل يعني: «جعل النبيّ أو الإمام أو أحد أولياء الله واسطةً في الدعاء أو الاستغفار أو التقرّب إلى الله».[٥] وبعبارة أخرى، يستعين العبد المؤمن في مقام طلبه من الله تعالى بالشخصيات المقرّبة لديه كوسيلة، ليكون دعاؤه أرجى للقبول. ولهذا المعنى جذور في السنّة النبويّة وسيرة المسلمين في صدر الإسلام، وقد شاع على مرّ التاريخ بين الشيعة وجمهور أهل السنّة على حدٍّ سواء.

٣. المعنى اللغوي والاصطلاحي للشفاعة

اشتُقّت كلمة «الشفاعة» من جذر «شَفَعَ» بمعنى «الزَّوْج» خلاف الوتر. وفي معاجم اللغة، «شَفَعَ» الشيء أي أضاف إليه مثله[٦]. وفي الاصطلاح الديني، الشفاعة هي: «وحقيقة الشفاعة وفائدتها: طلب اسقاط العقاب عن مستحقه، وانما تستعمل في طلب ايصال المنافع مجازا وتوسعا، ولا خلاف في ان طلب اسقاط الضرر والعقاب يكون شفاعة علي الحقيقة».[٧] بمعنى طلب ووساطة شخص مقرّب عند الله لمغفرة شخص آخر أو قضاء حاجته. فالشفاعة في حقيقتها نوع من انضمام العبد إلى وسيلة من المقرّبين في حضرة الله، ليكون لدعائه أثر أعظم.

٤. العلاقة بين التوسّل والشفاعة

على الرغم من أنّ التوسّل والشفاعة كلمتان مختلفتان، فإنّ بينهما ارتباطاً وثيقاً. يُطرح التوسّل غالباً في مقام «الطلب والتقرّب إلى الله»، بينما تتحقّق الشفاعة في مقام «الوساطة للمغفرة أو رفع المشكلات». وبتعبير آخر، التوسّل هو فعل العبد في البحث عن الوسيلة، والشفاعة هي استجابة وليّ الله لهذا التوسّل ووساطته عند الربّ. ونتيجة لذلك، فإنّ هذين المفهومين وجهان لعملة واحدة: أحدهما من الأسفل إلى الأعلى (توسّل المؤمن بوليّ

الله)، والآخر من الأعلى إلى الأسفل (شفاعة وليّ الله عند الربّ).

٥. استعمال القرآن لكلمة «الوسيلة»

وردت كلمة «الوسيلة» صراحةً في القرآن الكريم في الآية ٣٥ من سورة المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٨)

تأمر هذه الآية المؤمنين بالبحث عن وسيلة للتقرّب إلى الله تعالى. وقد حمل المفسّرون من الشيعة وأهل السنّة «الوسيلة» على معانٍ مختلفة، كالإيمان، والعمل الصالح، والدعاء، والتوسّل بالنبيّ وأولياء الله. وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره الكبير أنّ أحد معاني الوسيلة هو «التقرّب بالرسول». كما أيّد الطبري هذا المعنى في جامع البيان، وذكره كأحد التفاسير المعتبرة. وفي التفاسير الشيعية، مثل الميزان، فُسّرت الوسيلة بأنّها «كلّ ما يسبّب القرب إلى الله»، ومن أبرز مصاديقها الأولياء المعصومون.

٦. استعمال القرآن للشفاعة

استُعملت الشفاعة في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرّة. وتُظهر آيات مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٩)، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾(١٠)، أنّ الشفاعة في أصلها حقّ مقبول، لكنّها مشروطة بإذن الله ورضاه. وبناءً على ذلك، فإنّ قبول شفاعة الإنسان وشفاعة أولياء الله لا ينافيان التوحيد، بل هما تجلٍّ للرحمة واللطف الإلهي.

٧. خلاصة مفهومية

يستخلص من مجموع الدراسات اللغوية والقرآنية ما يلي:

التوسّل يعني الاستعانة بالوسائل المشروعة للتقرّب إلى الله.

الشفاعة هي من أبرز تجلّيات التوسّل، وتظهر في ساحة القيامة ومغفرة الذنوب.

القرآن الكريم أقرّ أصل الوساطة والشفاعة في الدنيا والآخرة.

المفسّرون من الشيعة وكثير من مفسّري أهل السنّة أقرّوا بمشروعيّة التوسّل والشفاعة كسنّة إلهية.

المبحث الثالث

مشروعيّة الطلب من أولياء الله وأسس التوسّل

١. مكانة التوسّل في القرآن الكريم

لقد دعا القرآن الكريم الإنسان دائماً إلى استخدام الوسائل المشروعة للتقرّب إلى الله. فبالإضافة إلى آية ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥)، فإنّ آيات مثل ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٩٠) و ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠) [تصحيح: ارجاع آيه نساء ٦٤ در متن اصلي فارسي صحيح نبود]، تدلّ على أنّ طلب العون والشفاعة من الآخرين للوصول إلى الله أمر مشروع.

تؤكّد التفاسير الشيعية والسنّية على أنّ «الوسيلة» يمكن أن تشير إلى النبيّ والأئمّة المعصومين وأولياء الله. وبشكل خاص، في التفاسير الشيعية مثل الميزان ومجمع البيان للطبرسي، يُعتبر التوسّل العملي بالمعصومين نوعاً من تطبيق الحكم الإلهي في مسار القرب إلى الله.

٢. روايات مشروعيّة التوسّل

ورد التأكيد على مشروعيّة التوسّل في روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السلام، ومن نماذج هذه الروايات:

قول الإمام الباقر عليه السلام: «نحن الوسيلة إلى الله»[١١]، بمعنى أنّ أهل البيت هم وسيلة التقرّب إلى الله.

قول الإمام الصادق عليه السلام في حديث آخر: «دعاء المؤمن بواسطة وليّ الله أقرب إلى الله من دعائه من نفسه»[١٢]، أي أنّ دعاء المؤمن عن طريق وليّ الله أرجى للقبول عند الله.

كما ورد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «من استغاث بي في غير الله فقد أصاب الحقّ»[١٣]، ممّا يدلّ على أنّ الاستناد إلى المعصوم والتوسّل به مشروع، شريطة ألّا يحلّ محلّ الله تعالى.

٣. الأسس الكلامية لمشروعيّة التوسّل

للتوسّل المشروع في علم الكلام الشيعي سند عقلي وفلسفي:

أصل الاتصال بالفيض الإلهي: يحتاج الإنسان بطبيعته وعقله إلى وسائط للوصول إلى الكمال والاستفادة من الرحمة الإلهية. والأئمّة وأولياء الله هم تلك الوسائط المشروعة والمقرّبة إلى الله.

أصل استمرارية السنّة الإلهية: لقد هدى الله البشر على مرّ التاريخ عن طريق الأنبياء وأولياء الله. وبناءً على ذلك، فإنّ التوسّل العملي بهذه الوسائط هو امتداد طبيعي للسنّة الإلهية.

أصل العدل والحكمة: تدلّ مشروعيّة التوسّل على الحكمة الإلهية؛ لأنّ الله يسهّل وصول الإنسان المباشر إلى الفيض الإلهي عبر الوسائط، وبذلك لا يضلّ عباده عن سبيل الهداية.

٤. التحليل التفسيري للمشروعيّة

لقد حلّلت التفاسير الشيعية والسنّية مشروعيّة التوسّل بصور مختلفة:

التفسير الشيعي (الطباطبائي، الطبرسي): التوسّل بالإمام المعصوم هو طريق الوصول إلى الله، وتركه لا يُعدّ مانعاً كاملاً في طريق القرب إلى الربّ، لكنّه يسبّب نقصاناً في الآثار الإلهية.

التفسير السنّي (الفخر الرازي، القرطبي): تشمل الوسيلة المشروعة الأنبياء والأولياء الصالحين، والبحث عنهم كواسطة في الدعاء جائز ومشروع.

٥. التوسّل العملي في السنّة الإسلامية

لقد تجلّى التوسّل العملي في حياة المسلمين على الدوام في صور منها:

الاستغاثة وطلب الشفاعة من النبيّ ﷺ وأهل بيته في المشكلات اليومية.

الرجوع إلى كبار رجال الدين والأولياء المقرّبين كوسائط في الدعاء والحاجات.

التوسّل بالأعمال الصالحة والعبادات المحدّدة كوسيلة للتقرّب إلى الله.

٦. خلاصة المبحث الثالث

من خلال دراسة القرآن والسنّة والأسس الكلامية، يمكن استنتاج ما يلي:

التوسّل مشروع: إنّ الطلب من أولياء الله والأئمّة المعصومين، مع مراعاة عدم الوقوع في الشرك، أمر مشروع ومُقرّ.

له سند عقلي: يحتاج الإنسان إلى وسائط مقرّبة للوصول إلى الكمال والاستفادة من الفيض الإلهي.

مقدّمة للوجوب: كما سيتّضح في المبحث التالي، تمهّد المشروعيّة للاستدلال على وجوب التوسّل في ظروف خاصة.

المبحث الرابع

تحليل وجوب التوسّل ودراسة نظريّة الإلزام

١. الأسس القرآنية لوجوب التوسّل

في القرآن الكريم، تدلّ بعض الآيات ليس فقط على مشروعيّة التوسّل، بل على الإلزام والضرورة أيضاً:

آية ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾(١٤): إنّ فعل الأمر «ابتغوا» ومضمون الآية لا يقتصران على إجازة التوسّل، بل هما حكمٌ بالإقدام العملي عليه. فإذا ما فُسّرت «الوسيلة» في التراث الروائي بأنّها أهل البيت والأئمّة، فإنّ التوسّل بهم يصبح واجباً.

آية ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(١٥): إنّ طاعة الله الحقيقية لا تتحقّق دون الارتباط بأوليائه المعصومين. ويؤدّي ترك التوسّل إلى نقص في تحقّق الطاعة والقرب الإلهي.

تُظهر هذه الآيات أنّ التوسّل ليس مجرّد عمل مستحبّ، بل هو واجب في مسار الهداية والطاعة الحقيقية.

٢. الروايات الدالّة على وجوب التوسّل

توجد روايات متعدّدة عن المعصومين عليهم السلام لا تصف التوسّل بأنّه مشروع فحسب، بل بأنّه واجب أيضاً:

قول الإمام الصادق عليه السلام: «بُنِيَ الإسلام عَلَى خَمْسٍ... وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوِلايَةِ»[١٦]، بمعنى أنّ الولاية هي محور جميع الأعمال، وأنّ التوسّل العملي بها جزء ضروري من الدين.

بيّن الإمام الباقر عليه السلام أنّ التوسّل العملي بأهل البيت هو شرط قبول الدعاء والأعمال[١٧].

يؤكّد ابن طاووس أيضاً في كتاب إقبال الأعمال (١٤١١هـ: ص٥١) على أنّ الدعاء دون التوسّل بالمعصوم ناقص، وفي كثير من الحالات عديم الأثر.

٣. التحليل الكلامي لوجوب التوسّل

من المنظور الكلامي، يمكن استنباط وجوب التوسّل:

لزوم الارتباط بوسائط الفيض الإلهي: إنّ الإنسان، من أجل بلوغ الكمال والاستفادة من رحمة الله، مضطرّ إلى الارتباط بالوسائط المشروعة.

تبيين الحكم العقلي: كما أنّ المريض لا يمكن أن يُشفى دون طبيب، فإنّ الإنسان يبقى محروماً من الهداية الربّانية دون التوسّل بالإمام[١٨].

الاستنباط من الولاية: بما أنّ ولاية أهل البيت هي محور قبول الأعمال، فإنّ التوسّل العملي بهم يصبح واجباً أيضاً.

٤. الاستدلال العقلاني والفلسفي

أصل إمكان الكمال: يحكم العقل بأنّ الإنسان، لبلوغ الكمال، يجب أن يستفيد من المسارات المشروعة والفعّالة. والإمام المعصوم، بصفته واسطة مشروعة، يُعدّ ضرورياً.

أصل العدل والحكمة: يرشد الله الإنسان في مسار الهداية من خلال وضع الوسائط؛ وترك التوسّل هو عدول عن مسار الهداية العقلاني والديني.

٥. آراء علماء الشيعة حول وجوب التوسّل

العلامة المجلسي: إنّ ترك التوسّل يحرم الإنسان من الشفاعة والرحمة الإلهية[١٩].

الشيخ الصدوق: يُعدّ الإيمان بالولاية والتوسّل من المعتقدات الضرورية لدى الشيعة، وتركه يُعتبر نقصاً في الاعتقاد[٢٠].

السيد ابن طاووس: الدعاء دون توسّل يكون في كثير من الحالات فاقداً للأثر، ويُعتبر أداؤه ناقصاً عند الله[٢١].

٦. خلاصة المبحث الرابع

بناءً على الأدلّة القرآنية والروائية والكلامية والعقلانية، يمكن القول:

التوسّل ليس مجرّد أمر مشروع، بل هو واجب في ظروف معيّنة.

الترك المتعمّد للتوسّل يعني الابتعاد عن وسائط الفيض الإلهي وعدم تحقّق الهداية الكاملة.

إنّ نظرية «وجوب التوسّل»، المدعومة بأسانيد قرآنية وروائية وعقلانية موثّقة، قابلة للدفاع والإثبات.

تُعدّ مشروعيّة التوسّل مقدّمة لإثبات وجوبه، وتمهّد الطريق للتحليلات الكلامية والفلسفية.

المبحث الخامس

تحليل آيتي (البقرة: ٣٠ والنساء: ٦٤)

١. تحليل الآية ٣٠ من سورة البقرة

قال الله تعالى في مستهلّ خلق الإنسان:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢٢]

تُعَدّ هذه الآية، في نظر كثير من المفسّرين، نقطة تحوّل في بحث «الخلافة الإلهية» ومكانة الإنسان الكامل. وتنبثق من هذه الآية أسئلة جوهرية عدّة:

هل الله الذي هو ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[٢٣] ومحيط بكل شيء، يحتاج إلى خليفة؟

إذا لم يكن للخليفة الإلهي أيّ اختيار أو دور مستقل، أفلا يكون وجوده لغواً وباطلاً؟

وهل يفعل الحكيم على الإطلاق عملاً عبثياً؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.[٢٤]

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة تميط اللثام عن حقيقة الخلافة وضرورة التوسّل.

أ. الحضور الإلهي المطلق ومعنى الخلافة

يوضّح العلّامة الطباطبائي في الميزان أنّ الخلافة الإلهية لا تعني «غيبة الله» أو «حاجته إلى من يخلفه»، بل تعني ظهور صفات الله وأسمائه في مظهر إنساني. فالخليفة هو المظهر التامّ للربوبية في عالم الإمكان؛ أي أنّه مجرى الفيض وواسطة الاتصال بين الخالق والمخلوق.[٢٥]

ب. اختيار الخليفة ومسؤولية الهداية

يصرّح الشيخ الصدوق في الاعتقادات بأنّ الخليفة الإلهي لا معنى له دون اختيار، لأنّ الله لا يفعل عبثاً. فالأنبياء والأئمّة، بتفويض محدود وفي إطار الإرادة الإلهية، يملكون الولاية والهداية؛ فهم ليسوا مستقلّين عن الله، بل هم منشأ الأثر في العالم بإذنه تعالى. وقد بُيّنت هذه الحقيقة أيضاً في آيات الشفاعة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.[٢٦]

ج. نفي العبث والتأكيد على الحكمة

لقد نزّه الله نفسه عن العبث فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.[٢٧]

بناءً على ذلك، فإنّ جَعْل الخليفة الإلهي - أي الأنبياء والأئمّة - ليس أمراً تشريفياً، بل هو استجابة للحاجة الحقيقية للبشر إلى الهداية. فلو كان هؤلاء الخلفاء مجرّد رموز لا اختيار لها، لكان وجودهم عبثاً. ومن هنا، اقترن وجودهم بصلاحيات حقيقية كالبيان للدين، والهداية، والشفاعة.[٢٨]

د. الخلافة وصلتها بالتوسّل

يعتبر الإمام الخميني في تحرير الوسيلة أنّ التوسّل بأولياء الله ليس جائزاً فحسب، بل مستحبّاً أيضاً؛ لأنّهم وسائط الفيض الإلهي ومجاري رحمته[٢٩].

وعليه، فإنّ:

وجود الإمام بصفته خليفة لله ليس رمزياً محضاً، بل هو ذو ولاية حقيقية.

وبما أنّ هذه الولاية هي بإذن الله، فالتوسّل بالإمام هو في حقيقته توسّل بالله.

إذن، فالتوسّل متجذّر في حقيقة الخلافة، ممّا يثبت مشروعيّته بل وضرورته.

الاستنتاج النهائي:

تقوم الخلافة الإلهية على أساس الحكمة والغائية. فالخليفة (النبيّ والإمام)، بما له من اختيار وولاية إلهية، هو واسطة الفيض والهداية للبشر. وبناءً على ذلك، فإنّ التوسّل بالخليفة الإلهي هو في حقيقته اتصال بالله، وهذه الحقيقة تؤكّد وجوب ومشروعيّة الطلب من الأئمّة.

٢. تحليل الآية ٦٤ من سورة النساء

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾.[٣٠]

تثير هذه الآية الشريفة أسئلة مهمّة:

أليس الله نفسه «حيّاً حاضراً»؟

أليس هو «السميع» البصير؟

أليس قادراً على المغفرة والعفو؟

من الواضح أنّ الله منزّه عن كل نقص، وغنيّ عن الواسطة في السماع والمغفرة. إلا أنّ التأمّل في الآية يُظهر أنّ الإرادة الإلهية قد اقتضت أن يتحقّق الطريق الحقيقي للمغفرة ونيل الرحمة عبر المجيء إلى الرسول وطلب شفاعته. وهذا القانون الإلهي يكشف عن مكانة الإنسان الكامل بصفته واسطة الفيض وحلقة الوصل بين الخلق والخالق.

استمرارية الآية وشمولها:

بما أنّ القرآن الكريم كتاب هداية لكلّ زمان، فلا يمكن أن تكون تعالىمه مقصورة على عصر النزول. وعليه، فإنّ تعبير «جاؤُوكَ» في الآية لا يدلّ فقط على وجوب المجيء إلى

النبيّ في حياته، بل ينبّه أيضاً على استمرارية هذا الأمر بعد وفاته. وبعبارة أخرى، لا يمكن تصوّر أنّ أمراً قرآنياً يقتصر على فئة معيّنة في زمن محدود؛ لأنّ إطلاق القرآن وخلوده يقتضيان سريان هذا الحكم في كلّ العصور.

ومن هنا، صرّح مفسّرو الشيعة ومتكلّموهم وبعض علماء أهل السنّة بأنّ الرجوع إلى النبيّ لطلب المغفرة والتوسّل لا يختصّ بزمان حياته، بل هو معتبر بعد وفاته أيضاً. وتؤيّد هذه الحقيقة الرواية المشهورة عن ابن عباس التي مفادها: «هذه الآية دليل على أنّ الناس يمكنهم بعد وفاة النبيّ أن يأتوا إلى قبره ويطلبوا الشفاعة».

ضرورة وجود الحجّة في كلّ زمان:

إضافة إلى ذلك، تبيّن التعاليم القرآنية والروائية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله؛ لأنّ استمرارية هداية البشر وبقاء الفيض الإلهي يعتمدان على وجود «الإنسان الكامل». فإذا كان النبيّ الأكرم ﷺ في عصر نزول القرآن هو واسطة المغفرة والفيض الإلهي، ففي العصور اللاحقة، أُنيط هذا الدور بأوصيائه والأئمّة المعصومين عليهم السلام. وعلى هذا الأساس، فإنّ استمرار الأمر الوارد في الآية بعد وفاة النبيّ ليس أمراً عقلانياً ومنطقياً فحسب، بل هو مؤيَّد على نحو بدهي في ضوء «قاعدة اللطف» وأصل «وجود الحجّة الدائم» في علم الكلام الشيعي.

النتيجة:

تُعَدّ الآية ٦٤ من سورة النساء في حقيقتها من أوضح الأدلّة على وجوب التوسّل ومشروعيّة الطلب من النبيّ وخلفائه المعصومين. وتبيّن هذه الآية أنّ الطريق الحقيقي للمغفرة والرحمة لا يتحقّق إلا في ظلّ شفاعة الإنسان الكامل والتوسّل به؛ وبما أنّ العالم لا يخلو من حجّة إلهية، فإنّ هذا الحكم يظلّ سارياً وجارياً في كلّ العصور والأجيال.

المبحث السادس

حدود صلاحيات الإمام، ومجالات التوسّل، والاستنتاجات الكلامية ـ الفقهية

يستند هذا التحليل إلى قراءة مركّبة للنصوص القرآنية (الآيات المتعلقة بالتوسّل والشفاعة)، والأحاديث المتواترة والمشهورة (أقوال أهل السنّة والشيعة حول التوسّل

والشفاعة)، والآراء التفسيرية والكلامية (للمفسّرين والمتكلّمين المشهورين). وقد نُظّمت الاستدلالات في ثلاث مجموعات رئيسية: (أ) تحديد نطاق صلاحيات الإمام ومصاديقها، (ب) تصنيف «عوالم الوجود» وبيان نسبة التوسّل في كلّ عالم، (ج) استنتاج حكم «وجوب التوسّل» و«مشروعيّة التوسّل المستقلّ». يقرّ القرآن بأنّ الشفاعة أمر واقعي لكنّه مشروط بالإذن الإلهي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥). وهذه الآية تبيّن أصل ارتباط الشفاعة بالإرادة الإلهية.

ويأمر القرآن بالبحث عن «وسيلة» للتقرّب إلى الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾؛ وقد حملها المفسّرون على الإيمان، والعمل الصالح، والأنبياء، والأولياء المقرّبين[٣١]

من جهة أخرى، ينفي القرآن الشفاعة المطلقة للمشركين وعبدة الأوثان ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٤)، بينما تبيّن آيات أخرى مثل ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[٣٢] أنّ الشفاعة المقبولة مشروطة ومحصورة فيمن لهم «عهد» عند الله.

تقدّم هذه المجموعة من النصوص أربع رسائل واضحة: الشفاعة الحقيقية موجودة؛ الشفاعة لا تتحقّق إلا بإذن الله ومشيئته؛ بعض الوسائل (الأنبياء، الصالحون، الأعمال الصالحة) هي طرق مشروعة للتقرّب؛ والشفاعة المطلقة غير المقيّدة، سواء من الأصنام أم من أصحاب الأهواء، مردودة.

١. تحديد نطاق صلاحيات الإمام (التسلسل الهرمي الثلاثي)

قبل كلّ شيء، يجب توضيح أنّ «صلاحية الإمام» (بالمعنى الولائي-الشفاعي) لا تعني الاستقلالية الإلهية؛ بل تعني «صلاحية مفوَّضة أو مأذوناً بها» في إطار الإرادة الإلهية. والنص التالي يصنّف المصاديق بدقّة في ثلاثة مستويات:

(أ) أمور لا يملك فيها الإمام أيّ صلاحية (ممنوعة/محالة)

إنّ الخلق المستقل، أو منح الغفران الذاتي والتكويني، أو «التصرّف في القوانين الربوبية» على نحو يكون منشأ أثر مستقل عن الله، لا يصدر عن الإمام. فهذه الأمور من خصائص الذات الإلهية حصراً. (الدليل العام: آيات التوحيد والنصوص النافية لأيّ تأثير

تامّ مستقل لغير الله؛ مثال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ و﴿مَنْ ذَا... إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، ممّا يبيّن أنّ الشفاعة نفسها تحتاج إلى «إذن»، وأنّ أيّ استقلال في الفعل لغير الله مردود).

النتيجة الفقهية/الكلامية: لا يمكن للإمام أن يقول باستقلال: «أنا أغفر»؛ فأيّ «مغفرة» نهائية هي في نطاق الذات الإلهية وتُمنح من قِبَل الله.

(ب) أمور يجب على الإمام أن يأخذ فيها الإذن من الله (مشروطة؛ والمثال البارز: الشفاعة لمغفرة المتوسّل)

يصرّح القرآن بأنّه «لا يشفع أحد إلا بإذنه»؛ وتبيّن آيات أخرى (النساء: ٦٤) أنّ شفاعة الرسول (وتبعاً له كلّ وليّ مقبول) يمكن أن توجب مغفرة التائبين؛ لكنّ هذه الشفاعة تتحقّق «بإذن الربّ».[٣٣]

والأحاديث الدالّة على التوسّل المشروع (مثل حديث الأعمى والدعاء الذي علّمه النبيّ) تبيّن أنّ التوسّل بدعاء النبيّ أو شفاعته وسيلة مشروعة لطلب المغفرة؛ لكنّ هذا لا يعني أنّ «الشفاعة» تعمل خارج الإرادة الإلهية؛ بل النبيّ أو الإمام شفيع «بإذن الله».[٣٤]

النتيجة الفقهية/الكلامية: يمكن للإمام أن يطلب المغفرة للمؤمن، ولهذا الطلب (الشفاعة) أثر عند الله، لكنّ هذا الأثر «مقيّد بالإذن الإلهي». لذا، يجب في الاستدلالات الكلامية المحافظة على صراحة الآيات ذات الصلة، وتجنّب تصوّر استقلالية أفعال الإمام.

(ج) أمور أُذن للإمام فيها مسبقاً أو له عهد عند الله (شروط مسبوقة بالإذن)

يقول القرآن: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (مريم: ٨٧)؛ وقد فسّرتها التفاسير المختلفة بـ«المؤمنين الحقيقيين» أو الذين عقدوا عهداً مع الله - وفي التفاسير الشيعية والسنّية، يُعبَّر أحياناً بأنّ بعض الأولياء المقبولين لهم عند الله عهد وإذن بالشفاعة.

كذلك، آيات متعدّدة أخرى (مثل ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ + آيات شفاعة الأنبياء والصالحين) إلى جانب الروايات المعتبرة، تؤيّد أنّ الله قد عيّن بعضهم «وكلاء للشفاعة»، تكون شفاعتهم نافذة بناءً على عهد وإذن إلهي.

النتيجة الفقهية/الكلامية: بعض المأذونين بالشفاعة (الأنبياء ومصاديق أهل التقوى)

يتمتّعون بـ«عهد/إذن مسبق» عند الله؛ وهذا أمر يقع بين «الاستقلال» و«انعدام أيّ دور»، ويشير إلى نظام التفويض والولاية/الشفاعة في المشيئة الإلهية.

٢. خريطة «عوالم الوجود» ونسبة التوسّل في كلّ عالم

لتحليل دقيق، يصنّف الباحث التوسّل في أربعة «عوالم للوجود» (بناءً على المصطلحات المألوفة في الفلسفة والكلام)، ويشرح نسبة المشروعية/الوجوب/الحظر في كلّ منها:

- عالم النبات (المستوى الطبيعي غير العاقل)

في هذا المستوى، تعمل «الأسباب الطبيعية»: تعاقب الليل والنهار، الماء، الأرض، وغيرها ضرورية لنمو النبات. وفي مقام التشريع أيضاً، يقرّ القرآن والعقل صراحة بعالم الأسباب. فاستخدام الأسباب الطبيعية، بما في ذلك التوسّل بالأسباب، أمر واضح وعقلاني وذي حكمة إلهية.

حكم الباحث: في مجال النباتات، التوسّل بالأسباب ليس جائزاً فحسب، بل هو عقلاني و«بديهي». وهنا نأخذ «وجوب» التوسّل بمعنى استخدام الأسباب المشروعة.

- عالم الناسوت (المجال الإنساني؛ العلاقات الاجتماعية والدعاء/التوسّل)

في عالم الإنسان (الناسوت)، يُطرح التوسّل بالأنبياء والصالحين بصيغة «الوجوب/الاستحباب»: يأمر القرآن: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، وتدلّ الأحاديث المتواترة على مشروعية التوسّل في طلب الحوائج والاستغفار[٣٥].

حكم الباحث: في عالم الناسوت، للتوسّل مقام الاستحباب، وفي الحالات التي يكون فيها الإنسان قد سلك الطريق المستقيم (التوبة، العمل الصالح)، يمكن أن يصبح التوسّل واجباً لتقوية الأمل والعمل (أي: التوسّل كسنّة لتعميق الإيمان والعمل).

- عالم الملكوت (المجال الروحاني الماورائي المرتبط بالإذن الإلهي)

في هذا العالم، كلّ تأثير ماورائي يستلزم إذن الله تعالى. فشفاعة الأنبياء والأولياء في القيامة أو في عالم البرزخ، بحسب صريح الآيات، تتحقّق «بإذن الله».[٣٦]

حكم الباحث: التوسّل في هذا المجال «مشروط بالإذن الإلهي»؛ فالتوسّل المشروع بالإمام في الملكوت معتبر فقط في إطار التفويض والإجازة الإلهية.

- عالم اللاهوت (الذات الإلهية؛ حريم التوحيد المطلق)

كلّ توسّل يعني اعتقاداً بالأثر المستقلّ لموجود ما في ذات الله أو إشراكاً به، هو باطل ونقض للتوحيد. وإذا كان توسّل شخص ما يعني نسبة قدرة تكوينية مستقلة أو ربوبية لغير الله، فهو «شرك». وقد نفى القرآن صراحة هذا النوع من التوسّل/الشفاعة الباطلة.

حكم الباحث: كلّ توسّل يؤدي إلى الاعتقاد باستقلالية الفعل لغير الله هو شرك ومردود.

٣. من التحليل إلى النتيجة: «وجوب التوسّل» و«مشروعيّة التوسّل المستقلّ (بالمعنى العملي)»

أ. وجوب التوسّل (بالمعنى الشرعي والتربوي)

يتّضح من مجموع نصوص القرآن (﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ...﴾) والسنّة النبوية وتوصيات أهل البيت (أدعية الصحيفة السجادية التي تظهر التوسّل مراراً) أنّ التوسّل كوسيلة مشروعة للتقرّب إلى الله ليس مباحاً فحسب، بل له مكانة بالغة الأهمية في السيرة والتعليم الديني.

خلاصة الباحث: إذا أخذنا «الوجوب» بمعناه الشرعي المساعد على تحقيق الهدف الديني - أي التقرّب الحقيقي إلى الله - فإنّ للتوسّل في حالات معيّنة (خاصة عند التوبة وطلب المغفرة) وجهاً من الاستحباب المؤكّد، وفي بعض المداخل التربوية والاجتماعية يُعدّ «مقوّياً للإيمان»، وبالتالي فهو «واجب عملياً» للتربية الروحية.

ب. مشروعيّة «التوسّل المستقلّ» (هل يمكن الطلب من الإمام مباشرة؟)

يجب التدقيق في أنّ عبارة «مشروعيّة التوسّل المستقلّ» قد يُراد منها معنيان:

١. معنى الاستقلالية التكوينية الآمرة: أن يتصرّف الإمام أو غيره - دون إذن الله - كمبدأ وفاعل مطلق للعفو أو النفع في العالم. هذا المعنى مردود صراحةً ويُعدّ شركاً.

٢. معنى الاستقلالية في مقام الطلب والوساطة: أن يتوجّه المؤمن مباشرة إلى الإمام (مثلاً: «يا إمام ادعُ لي» أو «يا وليّ توسّط لي») بناءً على ولايته المفوَّضة أو مكانته. في هذا المعنى، «استقلالية الإمام» ليست استقلالية تكوينية، بل «استقلالية في مقام الدعاء والتوسّل» - وهذا هو ما تبيّن الآيات والأحاديث مشروعيّته (النساء: ٦٤؛ حديث الأعمى).

نتيجة الباحث: «التوسّل المستقلّ» بالمعنى الأول (منح استقلالية الفعل للإمام) مردود؛ أمّا «التوسّل المستقلّ» بالمعنى الثاني (توجّه المؤمن لطلب الشفاعة والدعاء مباشرة) فهو مشروع، وفي كثير من الحالات التربوية والشرعية ليس جائزاً فحسب، بل مطلوب. وهذه المشروعية هي ما أشار إليه القرآن بـ ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾ وختمت عليها سنّة النبيّ وسيرة أهل البيت بخاتم التأييد.

خلاصة استدلالية وتوصيات بحثية

القضية الكبرى: يؤسّس القرآن والسنّة منظومة توحيدية دقيقة تقرّ بـ«الشفاعة والتوسّل» وتحافظ في الوقت نفسه على «تمامية التوحيد» (أي عدم استقلالية أيّ فاعل في مقابل الله). ويجمع بينهما بقاعدة «الإذن والعهد» عند الله: الشفاعة والوساطة معتبرتان، شريطة الإجازة الإلهية و/أو العهد والقبول عند الله.

على المستوى الفقهي والكلامي:

للأئمّة والأولياء المقرّبين «دور وسائطي»: لا يمكنهم أن يكونوا «آلهة بديلة»، لكن يمكنهم أن يكونوا «مأذونين بالشفاعة» أو «وسيلة للفيض».

على المستوى العملي والتربوي:

للتوسّل في حياة المؤمنين دور قيّم: فهو يؤيّد التوحيد الأفعالي (لأنّ الإذن الإلهي هو المحور دائماً)، ويقوّي الجهاد الأخلاقي والعبادي (لأنّه يمنح الإنسان أملاً ودافعاً وطريقاً للعودة).

نقطة كلامية - تاريخية مهمّة: إنّ العقيدة الشيعية القائلة بأنّ «الأرض لا تخلو من حجّة لله» تتوافق مع تفسير استمرارية الحكم القرآني[٣٧]؛ لأنّه إذا اعتبرنا

الشفاعة/التوسّل وسيلة مشروعة للمغفرة، فيجب أن يوجد في كلّ العصور «حجّة/وصيّ» ليبقى ذلك الطريق مفتوحاً[٣٨].

الخاتمة والاستنتاجات:

١. خلاصة عامة

في هذا المقال، ومن خلال منهج تفسيري، روائي، كلامي وعقلاني، تمّت دراسة إمكانية الانتقال من مشروعية التوسل بالأئمة المعصومين عليهم السلام إلى وجوبه. وقد أظهرت النتائج ما يلي:

الأسس القرآنية: بعض الآيات لا تقتصر على تأييد مشروعية التوسل، بل تشير إلى وجوبه باستخدام صيغ الأمر والدلالات الإلزامية.

الأسس الروائية: عرّفت أحاديث متعددة التوسل العملي بأهل البيت (ع) شرطًا لقبول الدعاء والأعمال، واعتبرت تركه بمثابة تركٍ لأساس الدين.

الأسس الكلامية والعقلانية: يحكم العقل بأن الإنسان، من أجل بلوغ الكمال والتمتع بالرحمة الإلهية، مضطر للتواصل مع الوسائط المشروعة المتمثلة في أهل البيت. فالتوسل العملي بالإمام هو ضمانة لتحقق الهداية والكمال الإنساني.

آراء كبار علماء الشيعة: أكّد علماء كبار من أمثال العلامة المجلسي، والشيخ الصدوق، والسيد ابن طاووس على ضرورة التوسل وآثاره في قبول الدعاء والأعمال.

٢. أهمية نظرية وجوب التوسل

يمكن الدفاع عن نظرية «وجوب التوسل» استنادًا إلى أدلة قرآنية، روائية، كلامية وعقلانية. هذه النظرية ترتقي بدور التوسل من كونه عملاً مستحبًا إلى كونه إلزامًا دينيًا وعقلانيًا، وتبيّن أن تركه عن وعي يؤدي إلى الحرمان من الهداية والرحمة الربانية.

٣. الآثار العملية

تقوية الاعتقاد: إن الوعي بوجوب التوسل يعزز الإيمان بالولاية والارتباط بالأئمة عليهم السلام.

تحقق الأعمال: مراعاة وجوب التوسل تؤدي إلى فاعلية وقبول الدعاء وسائر العبادات.

هداية الإنسان: يمهّد التوسل العملي بالأئمة عليهم السلام طريق الهداية الإلهية للإنسان ويحول دون ضلاله.

٤. مقترحات لبحوث مستقبلية

دراسة وجوب التوسل في ظروف خاصة وبيان الفرق بينه وبين التوسل الاستحبابي.

تحليل مقارن لوجوب التوسل في كتب التفسير والحديث عند الشيعة وأهل السنة.

دراسة الآثار الاجتماعية والتربوية للتوسل الواجب في حياة المسلمين الفردية والجماعية.

٥. الاستنتاج النهائي

أظهر التحليل المقارن لآراء مفسري الشيعة وأهل السنة حول آيات التوسل أن أصل «وساطة أولياء الله» في نيل الرحمة الإلهية لا يتعارض مع روح القرآن، بل يُطرح، في ضوء التحليلات التفسيرية الدقيقة، كأحد السبل المشروعة، بل والضرورية، لتعميق صلة العباد بالخالق. إن تحليل الآيات المحورية، كآية الوسيلة (﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾)، وآية الشفاعة، وآية استغفار النبي للأمة، يبيّن بوضوح أن القرآن الكريم قد فتح طرقًا متعددة للوصول إلى القرب الإلهي؛ ومنها الاستفادة من مقام أولياء الله بوصفهم قنواتٍ للفيض.

من خلال الآراء المطروحة، يمكن استنتاج أن المفسرين الشيعة، بتأكيدهم على مكانة الإمامة واستمرارية الهداية الإلهية في شخص الأئمة المعصومين عليهم السلام، لا يعتبرون التوسل مجرد أمر مباح، بل يرونه واجبًا في بعض الظروف. وفي المقابل، فإن كثيرًا من مفسري أهل السنة، ورغم عدم إنكارهم لأصل مشروعية التوسل، قد وضعوا قيودًا على نطاقه ومصاديقه. وهذه الاختلافات، أكثر من كونها نابعة من النصوص القرآنية، هي وليدة الأسس الكلامية والمناهج المتباينة للمدرستين تجاه مفهوم الإمامة، والولاية، والشفاعة.

إضافة إلى ذلك، أظهر نقد آراء المعارضين المعاصرين، من أمثال السيد مصطفى

الحسيني الطباطبائي ورشيد رضا، أن الاعتماد على الظاهرية المفرطة وإغفال سياق الآيات قد أدى إلى إنكار قسم من المعارف القرآنية. في حين أن إعادة قراءة التفاسير المعتبرة لدى الشيعة والسنة تُظهر أن الآيات موضع البحث لا تتوافق مع التوسل فحسب، بل توفر له الأساس النظري والقرآني.

وعليه، يمكن استنتاج ما يلي:

مشروعية التوسل قابلة للإثبات بناءً على النصوص القرآنية والتفاسير المعتبرة لدى الشيعة والسنة.

الاختلافات القائمة تكمن في الغالب في نطاق التوسل وكيفيته، لا في أصله.

التأكيد على البُعد المعرفي والروحي للتوسل يمكن أن يمهد لتقريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية.

تحتل نظرية وجوب التوسل مكانة خاصة في المنظومة الفكرية الشيعية، وهي تستند إلى أسس الإمامة وضرورة التمسك بأولياء الله.

في الختام، أظهر هذا البحث أن التوسل ليس بدعة أو انحرافًا، بل هو تجلٍّ لتعميق الإيمان وتقوية العلاقة بين العبد والمعبود عبر أولياء الله المصطفين؛ وهو أمر ينسجم تمامًا مع السنة النبوية وسيرة مسلمي صدر الإسلام.

هوامش البحث

(١). المائدة: ٣٥

(٢). النساء: ٦٤

(٣). الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح في اللغة، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٤). ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ١١، ص ٧٢٤.

(٥). جوادي آملي، عبد الله، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٦). الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ج ١، ص ٢٦٣.

(٧). الحسيني، سيد أحمد، رسائل المرتضى، ج ١، ص ١٥٠.
(٨). المائدة: ٣٥
(٩). البقرة: ٢٥٥
(١٠). الأنبياء: ٢٨
(١١). الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٣٥٢.
(١٢). الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٩٥.
(١٣). ابن طاووس، رضي الدين علي بن موسى، إقبال الأعمال، ص ٥٠.
(١٤). المائدة: ٣٥
(١٥). الشعراء: ١٠٨
(١٦). الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، ج ٢، ص ١٨.
(١٧). .الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٣٥٢.
(١٨). المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، تصحيح الاعتقاد، ج ١، ص ٢٢٤.
(١٩). المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٤٥.
(٢٠). الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، الاعتقادات في دين الإمامية، ج ٢، ص ٤٠٣.
(٢١). ابن طاووس، رضي الدين علي بن موسى، إقبال الأعمال، ص ٥١.
(٢٢). (البقرة: ٣٠)
(٢٣). (الحديد: ٤)
(٢٤). (المؤمنون: ١١٥).
(٢٥). الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ١١٩.
(٢٦). (البقرة: ٢٥٥).
(٢٧). (المؤمنون: ١١٥).
(٢٨). الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، نهج الحق وكشف الصدق، ص ٢٨٩.
(٢٩). الخميني، روح الله، تحرير الوسيلة، ج ١، ص ٥٢.
(٣٠) . (النساء: ٦٤).
(٣١). المائدة: ٣٥، وتفاسير الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ والبغوي، حسين بن مسعود، معالم التنزيل.
(٣٢). (مريم: ٨٧)
(٣٣). البقرة: ٢٥٥؛ النساء: ٦٤.
(٣٤). الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ج ٩، ص ٣٠؛ البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ج ٦، ص ١٦٧.

(٣٥) . المائدة: ٣٥؛ النساء: ٦٤؛ حديث الأعمى (الطبراني، البيهقي كما سبق).
(٣٦). (البقرة: ٢٥٥؛ الزمر: ٤٤).
(٣٧) . (مثل النساء: ٦٤)
(٣٨). (روايات «لا يخلو الزمان من حجة»؛ وكتب مثل كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق).

قائمة المصادر و المراجع

- إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، ١٤١٢ق، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت، الطبعة الثانية، قم.
٢. الكليني، محمد بن يعقوب، ١٤٠٧ق، الكافي، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، طهران.
٣. ابن طاووس، علي بن موسى، ١٤١١ق، إقبال الأعمال، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، قم.
٤. الطباطبائي، السيد محمد حسين، ١٣٧٤ش، الميزان في تفسير القرآن، دفتر انتشارات إسلامى، الطبعة الخامسة، قم.
٥. الطبرسي، الفضل بن الحسن، ١٣٧٢ش، مجمع البيان في تفسير القرآن، ناصر خسرو، الطبعة الثالثة، طهران.
٦. الفخر الرازي، محمد بن عمر، ١٤٢٠ق، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت.
٧. الطبري، محمد بن جرير، ١٤٠٥ق، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت.
٨. المجلسي، محمد باقر، ١٤٠٣ق، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، بيروت.
٩. الشيخ الصدوق (ابن بابويه)، محمد بن علي، ١٤٠٤ق، الاعتقادات في دين الإمامية، مؤتمر الشيخ الصدوق، الطبعة الأولى، طهران.
١٠. المفيد، محمد بن محمد، ١٤١٣ق، تصحيح الاعتقاد، مؤتمر الشيخ المفيد، الطبعة الأولى، قم.
١١. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، ١٤١٢ق، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الطبعة الثالثة، دمشق.
١٢. ابن منظور، محمد بن مكرم، ١٤٠٨ق، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت.
١٣. القرطبي، محمد بن أحمد، ١٤٠٥ق، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة.